الفصل الرابع عشر

انهيار إمارة أبناء كنز الدولة

٨١٥ هـ ١٤١٢ م

خشى الملك كرنيس على عرشه من الجيش المملوكي والأمير عبد الله بر شمبو ، فأرسل ابن أخته الأمير كنز الدولة وهو من أمراء النوبة من جهة أمه ، وأمير عربي مسلم من جهة أبيه من قبيلة بنى ربيعة بن نزار العدنانية . وقد كانت أمه شقيقة الملك كرنيس النوبية ، ولذلك كان من الأمراء الذين يحق لهم المطالبة بعرش النوبة لأنه ابن أخت الملك كرنبس ، وكان هذا يعنى أن أبناء كنز الدولة الربعي قد صاهروا أخيرا ملوك النوبة وهو أمر لم يكونوا قد أقدموا عليه من قبل كما فعلوا مع ملوك البجة ، ولربما جاء هذا متأخرا جدا ، وكان الأولى بهم أن يفعلوه قبل عدة قرون . وكان كنز الدولة هذا مسلما كما كان عربيا ، ولذلك فإن كرنبس احتج به على السلطان الذى أرسل عبد الله برشمبو مع جيش طقسوما ، وقال فى رسالته التى أرسلها مع الأمير كنز الدولة ابن شجاع الدين ناصر بن فخر الدين مالك إنه يرشحه لتولى الملك لأنه مسلم أولا ، ثم إن له الحق فى العرش النوبي . ووصل كنز الدولة إلى القاهرة وبلغ الرسالة وانتظر التأييد. بيد أن السلطان الناصر محمد قلاوون زج به فى السجن ، وأسرع فى إرسال الجيش فى سنة ٧١٦ هـ ١٣١٦ م . وخاف كرنبس من مغبة عصيان السلطان واستقر رأيه على أن ينزح جنوبا إلى الأبواب . ولكن ملك الأبواب لم يشأ أن يدخل فى صراع مع المماليك الذين سبق لهم أن وصلوا بلاده بجيش فيه أكثر من أربعين ألف مقاتل عربي بالإضافة إلى خيالة من

المماليك ، ولذلك فإنه ألقى القبض على كرنبس وسلمه إلى القائد المملوكي الذى حمله معه إلى القاهرة .وعند وصول كرنبس إلى مصر طلب كنز الدولة من السلطان أن يطلق سراحه كي يذهب إلى بلاده لجمع الخراج المطلوب منه ، ولكي يرعى شئون إمارته. فسمح له السلطان بذلك . ولكنه عند ما رحل من القاهرة لم يجعل رحلته تنتهى فى عاصمته المحدثه المحادة لأسوان ، بل اخذ يغذ السير حتى وصل إلى قلعة الدو ، وهناك أعلن نفسه ملكا على النوبة ، كما أعلن أنه سيسير إلى دنقلة لتولى الملك النوبي . وكان الملك عبد الله برسمبو في تلك الآونة قد تولى الملك بمساعدة المماليك قبل وصول كنز الدولة ، إلا أنه انتهج سلوكا لم يقبله النوبة ، إذ أن نشأته المملوكية في مصر أفسدت طباعه ، وجعلته يتعالى على أهله ، فكرهوه لذلك ، ولم يطيقوا كبرياءه الذي لم يكن يتلاءم وطبيعة أهل البلاد الذين عرفوا بالتواضع والتسامح والمساواة ، ولما رأوا فيه شموخ المماليك وتعاليهم ثاروا عليه . فلما وصل كنز الدولة إلى دنقلة التفوا حوله ، وفرحوا به ، وبايعوه ملكا على البلاد .[1] ولكن كنز الدولة كان يشعر بأن خاله الأمير أبرام كان أحق منه بالملك . وكان أبرام نزيل السجن في القاهرة . وقد قرر كنز الدولة أن يحكم حتى يجئ خاله لاستلام العرش في يوم من الأيام . ولما رأى السلطان أن كنز الدولة كان قد غرر به ، وأنه بدلا من أن يذهب إلى بلاده بالقرب من أسوان سار إلى دنقلة لاعتلاء عرش النوبة قرر أن يجازيه جزاء سيئا على فعلته تلك . ولذلك فانه دخل في مؤامرة مع الأمير أبرام خال كنز الدولة ، وأعلمه بأنه يوافق على توليته الملك شريطة أن يلقي القبض على كنز الدولة

---

[1] " كان كنز الدولة معتمدا على حقه في الملك عن طريق وراثة الأم من ناحية وعلى تأييد النوبيين والعرب من ناحية أخرى " دكتور مصطفى مسعد : المكتبة السودانية .

في دنقلة ، ويرسله إليه وهو يرسف في الأغلال . ولسوء الحظ فقد وافق الأمير أبرام على هذه المكيدة وأبدى استعداده لتسليم ابن أخته للسلطان نظير اعتلائه العرش. وبالفعل فقد أطلق السلطان المملوكي سراحه حسب وعده ، وذهب إلى دنقلة وهو يضمر في نفسه خيانة ابن أخته . وكان كنز الدولة ينتظر قدوم خاله أبرام إلى دنقلة بفارغ الصبر لكي يخلي له عرش النوبة ويسلمه الملك . وجاء أبرام وتنازل له كنز الدولة عن كل شئ ، وأقام الاحتفالات بتنصيب خاله ملكا على البلاد النوبية . وما إن استقر بالملك أبرام المقام كملك في دنقلة حتى ألقى القبض على ابن أخته الأمير كنز الدولة ، وزج به في السجن لحين اتخاذ الإجراءات اللازمة لترحيله في السلاسل والأغلال إلى مصر ليفي بوعده للسلطان المملوكي .

بيد أن الأمور سارت في مصلحة كنز الدولة إذ أن خاله لم يعش لأكثر من ثلاثة أيام بعد القبض عليه ، ومات أبرام قبل ترحيل كنز الدولة إلى مصر ، فأفرج النوبة عنه ونصبوه ملكا على البلاد بدلا من خاله الذي لقى حتفه . وفرح الناس بالملك النوبي العربي المسلم الأول . غير أن أكثر الناس اعتراضا على هذا الحدث كان السلطان المملوكي في القاهرة . وكان اعتراض السلطان يعزى – على ما يبدو – إلى تخوفه من أن يقيم كنز الدولة مملكة قوية عمادها قبيلة ربيعة ورجال مملكة النوبة والقبائل العربية الأخرى التي قد تقبل الدخول معه في حلف موحد ، وهو الذي كان جده على ما ورد في المسعودي يخرج في سنة ٣٣٢هـ بألف من ربيعة وألف من مضر وألف ثالثة من اليمن وثلاثين ألف مقاتل من البجة . وكان السلطان المملوكي دون شك في غنى عن مواجهة دولة بهذه القوة خاصة إذا انتظمت أمورها ، وتطورت مرافقها ، وقوي جيشها . لهذا فقد كان على السلطان

المملوكي أن يفعل كل ما يستطيع لأن يقضي على النار قبل أن يستفحل شررها .

وكان كنز الدولة هو الأمير العربي الوحيد الذي له مكانة سياسية معترف بها في صعيد مصر سواء أكان ذلك الاعتراف من قبل ولاة مصر أم من العربان أنفسهم . وكان له لقب مشرف معترف به ، وقد استمر لعدة قرون مما ينم على مكانته السياسية في الصعيد . كما كان يلجأ إليه المماليك كلما أرادوا إرسال حملة عسكرية إلى النوبة .ونظرا لمكانته السياسية تلك فقد كانت هناك قبائل عربية في صعيد مصر وما وراءه تلتف حوله ، وتأتمر بأمره ، مما يجعل مكانته سامية بين العرب . لذلك فقد كان لتخوف السلطان المملوكي من ازدياد نفوذه ما يبرره بسبب هذه الزعامة التي كانت تحيط به والتي – كما رأينا من قبل – جعلت بعض الشعراء العرب يفدون إلى آل الكنز ويمدحونهم ، ويحصلون على عطاياهم . فإذا كان سيف الدولة الحمداني يعطي المتنبي – على ما قيل – ثلاثة آلاف دينار على مدحه له ، فقد أعطى أحد هؤلاء ألف دينار لشاعر مدحهم مع إيراد ساقية يبلغ نفس المبلغ دون أن يكون شعر شاعرهم في مرتبة شعر المتنبي . وقد كانوا كما وصفوا أمراء ممدوحين مقصودين . كما كتب أحد المؤرخين سيرة لهم .

كان لاختيار السلطان الناصر محمد قلاوون للأمير النوبي عبد الله برشمبو (الذي كانت تكتبه بعض المصادر عبد الله نشلى)[٢]أهمية كبرى في تاريخ مملكة النوبة وعروبة السودان . وكان برشمبو قد اعتنق الدين الإسلامي في مصر . ويصف القلقشندى الموقف قائلا : " إنه لما امتنع كرنبس عن دفع الجزية سارت إليه العساكر المصرية ، ففر الى الأبواب ، وصار

[٢]القلقشندى : انظر مسعد ص ٢٨٨

عبد الله نشلى ملكا على النوبة سنة ٧١٩هـ ١٣١٩م ، وانقطعت الجزية عنهم من حين أسلم ملوكهم " . وهذه نقطة تحول تاريخية هامة في تاريخ مملكة المقرة النوبية إذ أن إسلام ملوكها قد سهل دخول العرب النازحين في سائر أنحاء البلاد ، وساوى بينهم وبين أهالي المملكة ، كما أنه جعل التزاوج والمصاهرة أمرا أقل صعوبة ، فزاد الاختلاط بين الجانبين . كذلك فقد ألغيت الجزية والبقط وكل ما يطلب منهم من إيرادات بمقتضى ما يفرضه الدين ما عدا الزكاة والصدقات الأمر الذي مكن القبائل العربية من ممارسة رعيهم وتربية جمالهم وماشيتهم وأغنامهم دون خوف من تعقب جباة الضرائب ، إذ كل ما كان عليهم أن يخرجوه كمسلمين هو ما فرضه الدين الإسلامي الحنيف .

هكذا أصبح كنز الدولة بن شجاع الدين ناصر بن فخر الدين مالك ملكا على النوبة بالرغم من معارضة السلطان الناصر قلاوون وذلك في سنة ٧٢٣هـ / ١٣٢٣م ، ولم يقبل السلطان بسياسة الأمر الواقع هذه لذلك فانه أرسل في نفس السنة حملة لخلع كنز الدولة وابعاده عن الملك ، وإعادة مرشحه الجديد كرنبس إلى العرش . وكان كرنبس في هذه الفترة قد اعتنق الدين الإسلامي ، كما أن السلطان الناصر قلاوون كان قد سبق له أن وعد الأمير أبرام بأنه سيفرج عنه إذا ما قام الأخير بالقبض على ابن أخته كنز الدولة وإرساله إليه في مصر .

ويبدو جليا أن السلطان المملوكي كان يخاف من استعراب ملوك النوبة أكثر من مسيحيتهم لأنه كان على ما يظهر يرى في ذلك خطرا عربيا يحدق بالمماليك في مصر ، وقد يكون هذا الخطر أقوى وأعنف من الخطر النوبي القابع في بلاد السودان . أما الخطر العربي فانه سيكون ردة فعل لما

قام به المماليك من سلب العرب نفوذهم ومكانتهم في مصر ، ثم اضطهادهم وطردهم منها ، ثم تهجيرهم وملاحقتهم في كل من بلاد النوبة وصحراء عيذاب البجاوية . والحقيقة فان سياسة المماليك كانت عنيفة إذ لم تترك للقبائل العربية أي مجال يذهبون إليه . وقد ظهر تعنتهم هذا بصورة أوضح في اعتراضهم على كنز الدولة العربي الهجين المسلم . فلما اعتنق كرنبس هو الآخر الإسلام مثل عبد الله برشمبو رأى السلطان في هذا الأمر ما يسهل عليه إرضاء مناصري كنز الدولة من نوبيين مسلمين ، ومن عرب قاطنين منذ أيام المأمون وما قبل ذلك في بلاد النوبة حين اشتروا منهم الأطيان والمزارع ، ومن أعراب حديثي عهد بالهجرة . وعليه فقد بدأ في إعداد الجيش اللازم لتنصيب كرنبس ملكا على النوبة . وليس لدينا ما يشير إلى العناصر التي كان يتكون منها الجيش ، وعما إذا كان فيه أعداد من القبائل العربية كما جرت العادة ، ولكن على كل حال وصل الجيش إلى مشارف دنقلة في ٩ شعبان سنة ٧٢٤هـ / ٤ أغسطس ١٣٢٤م بعد أن قضى تسعة شهور في الطريق . ولم يشأ كنز الدولة أن يلتحم مع الجيش المملوكي في معركة ، بل سار جنوبا نحو الأبواب بعيدا عن أيدي المماليك . ويبدو أنه كان في منعة من مناصريه من نوبة وعرب ربيعة وأحلافها لأن أيدي المماليك لم تستطع الوصول إليه ، كما أن يد ملك الأبواب لم تمتد إليه . ولم يشأ الجيش المملوكي أن يستمر في مطاردته ، فعاد أدراجه إلى مصر ، وسار في ذيلهم كنز الدولة حتى إذا غادروا مملكة النوبة أطل بجماعته ومؤيديه على دنقلة ، وسرعان ما هرول الملك كرنبس فارا من دنقلة قاصدا أسوان خوفا على حياته . وأرسل من هناك إلي السلطان يطلب النجدة ، ولكن لم يصله منها شئ . وبقي في أسوان ينتظر قدوم النجدات حتى سنة ٧٢٦هـ /

١٣٢٦م ، غير أنها لم تصل ، وبدا وكأن السلطان المملوكي قد تخلى عن مرشحه . وهكذا ثبتت أقدام كنز الدولة في حكم النوبة ، وتمثل هذه الحادثة نهاية حكم المسيحيين من ملوك النوبة ، وانتقال الملك بعد ذلك إلى ملوك مسلمين . [٣]

استمر المسلمون العرب من أبناء كنز الدولة يحكمون النوبة فترة من الوقت إذ قال ابن فضل ا لله العمرى عن مملكة النوبة في حوالي سنة ٧٤٩هـ / ١٣٤٩م إن " ملكها الآن مسلم من أولاد كنز الدولة ، وهؤلاء أهل بيت ثارت لهم فيما تقدم ثوائر مرات " . [٤]

ولا يعرف ما قد حدث بالنسبة للدستور الوراثي الذي كان يسير عليه النوبة في تولى الملك ، وعما إذا استمروا كسابق عهدهم في تولية ابن الأخت أم غيروا تلك الطريقة بتوريث الابن لأن الأحداث التي حدثت بعد ذلك في سنة ٧٦٧هـ / ١٣٦٥م تشير إلى أنه ذهب رسل من النوبة إلى مصر برئاسة ركن الدين كرنبس الأمير النوبي والحاج ياقوت الترجمان، وفارس الدين ، وطلبوا من السلطان المملوكي أن يساعد ملكهم النوبي، الذي ثار عليه ابن أخته بمؤازرة بني جعد . واقتتل أنصار الخال وابن أخته في دنقلة وانتهت الحرب بينهما بمقتل الملك وانتصار ابن أخته ومن معه من بني جعد . وهنا أيضا لم تذكر المصادر شيئا عن أبناء كنز الدولة وأين كان موقفهم في هذه الحركة ، وقد ارتأى الدكتور يوسف من مجريات الحوادث أنه لم يكن هناك شأن لأبناء كنز الدولة في هذه الأحداث الدامية ، ويقول يوسف بأنه " لا يبدو أن ركن الدين كرنبس كان من أبناء الكنز لأن اسمه لا يشير إلى أنه

---

[٣] مسعد ص ٣٤٦ – المكتبة السودانية العربية .

[٤] مسعد ص ٣٤٣ – المكتبة السودانية العربية .

كان منهم ، كما أنه إن كـان منهـم فلـم يكـن بحاجـة إلى ترجمـان لأن أبنـاء الكنز كانوا يتكلمون العربية . كذلك فإن وجود شقاق بين بني كـنز الدولـة والمماليك بأسوان كان يظهر بوضوح أنـه مـن غـير المحتمـل أن يكـون ركـن الدولة من بني الكنز " . [٥]

أدى نزوح القبائل العربية إلى نزاع بين النوبة والعرب وقد شعر ابـن أخت الملك القتيل عندما تولى الملك بعد خاله بأن موقفه لن يكون بمأمن طالما كانت القبائل العربية تحيط به وبمملكته من كل جانب . وكان على ما يبـدو يخشى أن يقضوا عليـه وعلـى ملكـه . لذلـك فإنـه آثـر أن يبدأهـم بالمفاجـأة ويقضـى عليهـم بخدعـة يدبرهـا لهـم . فمـا كـان منـه إلا أن دعـا زعمـاءهم وشيوخهم إلى وليمة كبيرة اجتمعوا إليها في عاصمته . وكان الزعماء العرب الذين حضروا الوليمة يبلغ عددهم تسعة عشـر زعيمـا غـير الآخريـن الذيـن صحبوهم . وبينما هم في الوليمة أشعل النيران حولهم ، فطوقهم اللهب مـن كل مكان وأحرقهم أحياء ،أما بقية بني جعـد الذيـن كـانوا حلفـاءه بـالأمس فإنه دبر لهم هجوما مفاجئا لم يكونوا يتوقعونه ، فقتل منهم كثيرين مـن هـول الضرب والطعن المفاجئ ، وأثخـن بـالجراح آخـرون وفـر البـاقون لا يلـوون على شئ .

لم يكتف النوبة بهذه الضربات التي كالوها للعـرب، فـرأوا أن يجهـزوا عليهم نهائيا ، ولذلك فقد أرسلوا إلى السلطان المملوكـي في مصـر كـي يمـد لهم يـد المسـاعدة ، ويرسـل لهـم القـوات الضروريـة للقضـاء علـى عدوهمـا المشترك : العربان الذين كانوا قد انتشروا في كـل مكـان ، وقـد كـان يحيـط

---

[٥] يوسف فضل : ص ١٢١ ، وفي التبريرات المنطقية التي ذكرها يوسف مـا يؤيـد افتراضـه بـأن كـنز الدولة هذا ليس عربيا ربعيا .

بهم بنو الكنز وحلفاؤهم بنو عكرمة الذين استوطنوا منطقة أسوان وما بين عيذاب وسواكن .[٦]

وفي سنة ٧٦٧هـ / ١٣٦٥ /٦ م استجاب المماليك لطلب النوبة وأرسلوا حملة كبيرة قوامها ٣٠٠٠ فارس مملوكي بقيادة حاجب الحجاب ، وكانت أهداف الحملة تتلخص في تأييد الملك النوبي عسكريا وابقائه على عرش مملكته ، ومعاقبة بني الكنز ومن حالفهم من العربان ، وتثبيت النفوذ المملوكي في دنقلا .[٧]

ولما وصل المماليك قوص دعوا أبناء الكنز للتفاهم معهم حول إحلال السلام بينهم ، واستجاب بعض بني كنز الدولة لتلك الدعوة والتقوا مع الجيش في أدفو ، وقدموا فروض الولاء لحاجب الحجاب الذي منحهم كسوات الشرف مكافأة لهم على ولائهم . وسار الجيش نحو الجنوب تصحبه بعض السفن النهرية ، وحاول جاهدا العبور بها من الجنادل جنوبا في الشلالين الأول والثاني . وبعد صعوبات شديدة تجاوز هذه العقبات . وبينما كان الجيش المملوكي يصارع هذه الصعاب في طريقه إلى الجنوب أسرع العرب في الهجوم على قلعة الدّو قبل وصول المماليك لإنقاذها . ولما رأى بنو عكرمة اقتراب الجيش المملوكي منهم رأوا أن من الأوفق تعجيل الهجوم .[٨] وانتهت معارك العرب مع المماليك بأسر عدد من زعماء العربان ومحاربيهم

---

[٦] نفس المصدر

[٧] نفس المصدر . من هذه الحروب يتضح بأن المماليك والعرب كانوا يتنافسون على الملك في مصر ، وأن المماليك الذين لم يكن لهم وطن أو ملك سابق كانوا يخشون على أنفسهم من العرب اذا ما قامت لهم قائمة سواء أكان ذلك في صعيد مصر أو السودان . ومن هنا تعمقت عداوة المماليك للعرب الذين كانوا أصحاب الملك الأول في مصر بعد فتحها .

[٨] يوسف فضل

وخاصة من بني كنز الدولة كما جرت العادة لأنهم كانوا يشكلون الأعداء التقليديين للمماليك ، وأضيف إليهم هذه المرة بعض من بني عكرمة ؛ واقتيد جميع الأسرى إلى مصر مع الجيش المملوكي بعد أن أنهى مهمته في النوبة. وفي هذه المرة لم يعمد الجيش إلى مطاردة العربان في برية السودان وساسبه .

وهنا تظهر لنا المأساة التي واجهت أبناء كنز الدولة في معاركهم مع المماليك ، لأن القائد المملوكي أخذ كثيرا من هؤلاء الأمراء ووجوه القوم إلى القاهرة " وفي تلك السنة (٧٦٧هـ /١٣٦٥م) عين السلطان الأشرف شعبان واليا على أسوان وأقطاع أبناء كنز الدولة هناك . وخلع على الأمير الحسام المعروف بالدم الأسود وسلمه أولاد الكنز المسجونين بالقاهرة ، وسار بهم الدم الأسود إلى قوص ، فسمرهم جميعا ، [٩] ومضى بهم مسمرين من قوص إلى أسوان ووسطهم بها . [١٠] فشق ذلك العمل على أولادهم وعبيدهم ، واجتمعوا مع العكارمة في جمع كبير إلى أسوان ، فلقيهم الدم الأسود وقاتلهم فهزموه وجرحوا عدة من مماليكه ، ومالوا على أهل أسوان يقتلون وينهبون ويخربون الدور ، ويحرقون بالنار حتى أفنوا عدة من الناس ، وأسروا النساء ، وفعلوا بأسوان ما فعله الفرنجة بالإسكندرية " [١١]

ويضيف المقريزي في السلوك أن " في هذه السنة (٧٦٧هـ / ١٣٦٥م) قدم الخبر بكثرة فساد أولاد الكنز وطائفة من العكارمة بأسوان وسواكن ، وأنهم منعوا التجار وغيرهم من السفر لقطعهم الطريق ، وأخذهم أموال الناس ، وأن أولاد الكنز قد غلبوا على ثغر أسوان وصحراء عيذاب

---

[٩] صلبهم بالمسامير .

[١٠] قطعهم بالسيف الى نصفين وبعضهم يقول ان القطع كان بالمنشار .

[١١] مسعد : المكتبة السودانية العربية ص ٣٥١ : عن المقريزي – السلوك

وبرية الواحات الداخلية . وكانوا صاهروا ملوك النوبة ، وكذلك صاهروا أمراء العكارمة واشتدت شوكتهم " . وهكذا نجد أن أبناء الكنز عقدوا ثلاث مصاهرات هامة واحدة مع البجة ، والثانية مع النوبة ، والثالثة مع العكارمة وأن نفوذهم قد وصل حتى سواكن .

كانت خطوات بني ربيعة بقيادة أبناء الكنز تتعثر عقدا بعد عقد وهم يحاولون إقامة دولة عربية لهم في الأراضي الواقعة بين جنوبي أسوان حتى دنقلة بالسودان ، وشرقا حتى عيذاب وسواكن . وكان لهذا المصير الذي وجدوه من المماليك وقتل رجالهم بالجملة بصورة بشعة وسبي حريمهم وذراريهم ما يعطي صورة عن الفظائع التي ارتكبها المماليك في حقهم . وكان أبناء ربيعة بصفة خاصة كما رأينا من تاريخهم الذي سرد هنا قد امتزجوا بالبجة وبالنوبة بل وبغيرهم من القبائل العربية الأخرى الصغيرة التي انضمت إليهم لعقد المخالفات التي كثيرا ما كانت تنشأ بين القبائل العربية قبل الإسلام وعند البعثة النبوية الشريفة وما بعد ذلك . وقد سعى المماليك جاهدين لتحطيم قوة بني الكنز باستمرار قبل أن يشتد عضدهم كما عمدوا إلى تصفيتهم بقتل رجالهم ، سبي نسائهم . وقد فعلوا ببني عكرمة في آخر الأمر ما فعلوه ببني ربيعة الذين تغير اسمهم منذ القرن الرابع إلى بني الكنز ، ثم درجت المصادر العربية بتسميتهم " أولاد " الكنز ولم يشيروا إليهم بلفظة " بني " أو أبناء ، ولعلها كلمة أضحت عامية استعملها المماليك لجهلهم باللغة العربية الفصحى الجزلة فأصبحت مثل لفظة " العربان " سائدة بينهم وفي سلطنتهم حتى استعملها الكتاب وكأنما ليصدق القول بأن الناس على دين ملوكهم .

وقضى المماليك على المقاتلين العرب الذين كانوا قد تجمعوا في جزيرة ميخائيل التي كانت معقلا للقبائل العربية ، وفتكوا بمن فيها، ومن حاول الهرب منها . أما دنقلة[١٢] فقد كان المقاتلون العرب قد جعلوها خرابا ، ولم تعد بمنأى عن أيدي العرب المتحفزين للإغارة عليها من حين لآخر رغبة في الاستيلاء على الملك . وبسبب ما حاق بها من دمار شامل قرر الملك النوبي أن يبقى في مدينة ألدو التي كانت أحسن حالا من سابقتها .

بيد أن أبناء ربيعة من بني الكنز لم تثنهم المجازر التي واجهوها من قبل المماليك عن إقامة دولتهم الخاصة بهم من أسوان جنوبا حتى بلاد النوبة . ففي سنة ٧٨٧هـ /١٣٨٥م " قدم الخبر بأن أولاد الكنز هجموا على ثغر أسوان ، وقتلوا معظم أهله ، ونهبوا الناس ، وأن الوالى فر منهم فخلع على حسين بن فرط بن عمر التركماني واستقر في ولاية أسوان ورسم أن يتوجه مع الكاشف وابن مازن " . [١٣] ثم ما لبث أن أعاد أبناء كنز الدولة الكرة مرة أخرى بعد ثلاث سنوات من ذلك التاريخ أي في سنة ٧٩٠هـ/ ١٣٨٨م إذ " استولى أولاد الكنز على ثغر أسوان بعد سنة ٧٩٠هـ / ١٣٨٨م فأفسدوا فسادا كبيرا . وكانت لهم مع ولاة أسوان عدة حروب"[١٤] وقد أدت تلك الهجمات إلى بعض الخراب في أسوان ، ولم يقدم أبناء ربيعة على الاستيلاء نهائيا على أسوان ، وربما أرسل السلطان المملوكي قوات لطردهم من الثغر . كذلك ليس في المصادر ما يفيد عن نوع الاتفاق

---

[١٢] تكتب دنقلة أحيانا بالتاء المربوطة فى آخر الكلمة ، وأحيانا دنقلا . وكتبها بعض العرب دمقلة .

[١٣] مسعد ص ٣٥٣ عن السلوك للمقريزي .

[١٤] مسعد : المكتبة السودانية العربية .

أو المحالفة التى تمت بين النوبة وبين أبناء الكنز للقيام بهذه الهجمات مما يشير الى أنها ربما كانت إغارات عربية على والى أسوان وأهالى المدينة .

ومما يدل على عدم استطاعة الكنزيين الاستيلاء على أسوان أنهم أعادوا الكرة مرة ثانية في رجب سنة ٧٩٨هـ / ١٣٩٥م إذ يخبرنا المقريزي في المقفى بأنه في ذلك الشهر " سارت الأحامدة من عرب الصعيد من كنانة القحطانيين في جمع من هوارة على ابن عريب والى أسوان واتفقوا مع أولاد الكنز ، ففر منهم حسين صهر أبي ورقة ونهبوا داره وكل ما في البلد . فخرج البريد بتوجيه عمر بن إلياس نائب الوجه القبلى لطلبهم . فسار بهوارة عمر بن عبد العزيز ، فلم يقدر عمر عليهم ، وعاد بغير طائل " [١٥]

وهوارة كما ذكرت المصادر هي من قبائل المغرب العربي .[١٦]وقد ذكر أنها من قبائل البربر التي اختلطت بالقبائل اليمنية من أيام مملكة سبأ حين كانت التجارة اليمنية تصل إلى شمال إفريقيا . وقد نزحت هذه القبيلة من مصر واتجهت نحو الجنوب حتى وصلت إلى أسوان ، واتحدت كما ذكر مع الأحامدة اليمنيين ، ومع بني الكنز ضد والى أسوان . غير أن هذا الحلف لم يستمر طويلا ، وربما كان ذلك بعد استيلائهم على أسوان التي ما لبثوا أن اختلفوا على ما فيها كما يظهر لأنهم هم وبنو الكنز اقتتلوا بعد ذلك قتالا عنيفا. ويحدثنا القلقشندي بأن " هوارة زحفت في محرم سنة ٨١٥هـ / ١٤١٢م إلى أسوان وحاربت أولاد الكنز ، وهزموهم وقتلوا كثيرا من الناس ، وسبوا ما هناك من النساء والأولاد ، واسترقوا الجميع ، وهدموا

---

[١٥] مسعد : المقفى ص ٣٥٦ للمقريزي

[١٦] عبد المجيد عابدين : حاشيته على البيان والاعراب للمقريزي .

أسوار مدينة أسوان ، ومضوا بالسبي وتركوها خرابا يبابا لا ساكن فيها ، فاستمرت على ذلك . "

وهنا أيضا نجد أن مصير بني ربيعة وأمرائها من بني كنز الدولة لم يكن بأحسن حالا من مصير مملكة النوبة ، وأن طموحهم سواء في إقامة دولة في أسوان أو محاولاتهم الأخيرة في أن يرثوا مملكة النوبة قد باءت بالفشل . كذلك فإن ما ورثوه من ملك من البجة لم يسمع به بعد ذلك ولربما انصهرت الجماعة الربعية التي اختلطت بالبجة قبل وقت طويل ، ويبدو أنها قد تطبعت بعاداتهم وتقاليدهم ، واستعملت لسانهم البجاوي " التبداوي " ، ونسيت اللغة العربية وأنشأوا خليطا بجاويا انقسم فيما بعد إلي قبيلة أبناء عمار الذين يسميهم البجة أَمَّارْ أرْ ، والقبيلة الأخرى المعروفة بالبشاريين وهم أبناء بشار . وكلا الرجلين بشار وعمار من أبناء الزبير بن العوام (ض) كما سيجئ عند الحديث عنهما . أما الكثير من أبناء ربيعة فقد أصبحوا جزءا لا يتجزأ من أفراد القبيلة .

وبهذه الضربة القاضية التي كالتها هوارة لبني كنز الدولة اضمحلت هذه الإمارة وأخذت تعيش على أنها قبيلة فحسب ، وأقامت في أرض المريس بعد أن أخذت في الاختلاط بالنوبة القاطنين في تلك البلاد والذين اعتنقوا الدين الإسلامي ، بينما سكنت جماعات منها منذ أن تولوا ملك النوبة في دنقلة ، واختلطوا أيضا بالنوبة هناك ، ونشروا الإسلام في تلك النواحي ، فأخذ النوبة عنهم الإسلام كما أخذوا من النوبة اللغة المعروفة الآن بالدنقلاوية وهي لا تمت إلى اللغة العربية في شئ ولها أصولها وقواعدها وتراكيبها وألفاظها الخاصة بها . وأصبحت اللغة العربية في طي النسيان هناك الآن إلا أنها في العصر الحاضر بدأت تجد طريقها في مدن وقرى وبيوت

قبيلة الدناقلة خاصة مع انتشار التعليم الذي أسهم فيه أبناء دنقلة بأموالهم الخاصة فأقاموا مدارس أهلية خاصة كثيرة تظهر مدى حرصهم على التعليم وتضامنهم في رفعة البلاد . ويتحلى كل من أبناء الكنز سواء في أرض الكنوز أو دنقلة بأخلاق سامية تشهد بأصالتهم ، وعراقة محتدهم الذي يعود إلى مملكتي ربيعة والنوبة معا فجمعا بذلك المجد من أطرافه .

هكذا نرى أن ربيعة قد بدأت حياتها في شمال شرقي السودان وفي أسوان ٢٣٨هـ / ٨٥٢ م ولعبت أدوارا مختلفة على الصعيد السياسي في هذه المناطق ، وصمدت أمام الدولات التي حكمت مصر من عباسيين وطولونيين واخشيديين وفاطميين وأيوبيين ومماليك ، ولم تذهب ريحها إلا بعد أن أسست ملكا في بلاد النوبة لفترة من الزمن قبل أن تضربها قبيلة هوارة المغربية اليمنية ضربتها القاضية ، تلك القبيلة التي أرسلها المماليك إلى صعيد مصر لإيقاد نار الفتنة بين القبائل التي تبحث عن مكان تستقر فيه بعيدا عن ممتلكات المماليك .

عندما انهارت دنقلة ، وتحطمت إمارة ربيعة ،كان هناك عدد كبير من القبائل العربية وبطونها قد انتشر في كثير من أنحاء السودان ، فقد هاجرت إليه من قضاعة قبيلة بلي وجهينة منذ أن أمر سيدنا عمر ابن الخطاب (ض) بترحيل ثلث قضاعة من الشام ، فكان ذلك الثلث عبارة عن جهينة بصفة رئيسية ومعها جماعة من بلي ، غير تلك التي نزحت في أفواج متعددة قبل الميلاد وبعده وقبل الإسلام . ورحلت أيضا قبيلة ربيعة من أبناء بشر بينما رجع أبناء يونس إلى أرض المملكة العربية السعودية بعد أن اقتتلوا مع أبناء عمومتهم . وسكن مع البجة كل من ربيعة ومضر واليمن . ولما كانت ربيعة قد اختلطت بالبجة رغم أنها رحلت من نجد بعيالاتها والذرية ، وتزاوجت

فيهم فإنه من المتوقع أيضا أن بعضا من أبناء مضر واليمن قد فعلوا ذلك أيضا ، وربما يعزى ذلك لقلة عدد النساء العربيات في صحراء عيذاب وإقليم البجة . ومع الضغط الفاطمي ، والاضطهاد المملوكي ، هاجر إلى السودان سواء على ضفاف النيل أو عبر صحراء البجة قبائل عربية متعددة بعضها كثير العدد وبعضها قليل ، ووجدت كلها متنفسا في ذلك السهل الرحب من الأراضي السودانية التي استوطنوها .